السبت 13 يوليو/ تموز 2024 م 7 محرّم 1446 هـ ◻ العدد 3603 السنة العاشرة
Saturday 13 July 2024

العربي الجديد

هوامش

يُعّد مسجد الأشرفية في مدينة تعز من أهم مزارات اليمن نتيجة عمره القديم الذي يتجاوز ستة قرون ونصف القرن، وبنائه المعماري المميز، والنقوش الإسلامية الرائعة التي تزينه

مسجد ومدرسة الأشرفية في تعز (عامر الصبري)

مسجد الأشرفية

مفخرة الدولة الرسولية في تعز

تعز ـ **فخر العزب**

باختصار

حرص الملك الأشرف إسماعيل بن العباس لدى بناء المسجد على الجمع بين العلم والعبادة، وألحق به مدرسة للتعليم

■■■

نتيجة للمكانة التاريخية لمسجد الأشرفية، وُضعت صورته على العملة اليمنية من فئة 100 ريال

■■■

خلال الحرب التي شهدتها اليمن منذ عام 2015، أصيبت المنارة الشرقية للمسجد بقذيفة أطلقها الحوثيون، كما تعرّض لطلقات قناصة

يقع مسجد ومدرسة الأشرفية على السفح الشمالي لقلعة القاهرة التاريخية في مدينة تعز جنوب غربي اليمن، ويعتبر من أبرز المعالم الإسلامية في المدينة، وتحفة معمارية شاهدة على عظمة الدولة الرسولية.

وكانت مدينة تعز عاصمة الدولة الرسولية التي أسسها الملك المنصور، وحكمت اليمن بين العامين 628 و858 الميلاديين. وامتد نفوذ الدولة الرسولية من حضرموت جنوباً إلى مكة شمالاً. واشتهرت الدولة الرسولية بأن حكامها كانوا من أصحاب المؤلفات في مختلف العلوم، وتركوا إرثاً كبيراً، واهتموا ببناء المساجد والمدارس.

وأمر بتأسيس مسجد الأشرفية الملك الأشرف إسماعيل بن العباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر الرسولي. وبدأت أعمال التشييد عام 800 الهجري، وافتتح عام 803 الهجري. وحرص السلطان الأشرف لدى بناء المسجد الذي حمل اسمه على الجمع بين العلم والعبادة، وألحق به مدرسة لتعليم القرآن الكريم والعلوم الشرعية والحديث والفقه وعلوم اللغة.

وظلت الأشرفية تُدرس المذاهب الأربعة بلا تعصب كما هو دين الدولة الرسولية، لكن نجمها خفت بانتهاء هذه الدولة أمام جيش بروسباي المملوكي عام 1516 الميلادي، وما تلاه من حروب بين أئمة اليمن وجيوش الاحتلال الأيوبي والتركي التي جعلت تعز مدينة خراب. ويذكر مؤرخون أن ولاة الأوقاف أهملوا مدرسة الأشرفية، ولم يرمموا التشققات والتصدعات داخله. وضاعف من محنة هذه المدرسة اتخاذها، باستثناء المسجد، مدبغة للجلود.

وبُني أساس المسجد من أحجار صلبة جرى جلبها من سائلة الماء القريبة من المكان. واستخدم في البناء الطوب الأحمر ومادة القضاض التي تتضمن النورة وحصى صغيرة تعرف باسم النيس، ما منحه لونه الأبيض المميز.

ويتضمن المسجد مئذنتين تؤامين بارتفاع 35 متراً تقعان في جهتيه الشرقية الجنوبية والغربية الجنوبية. ولكل مئذنة بدن وقاعدة مرتفعة وتنبثق منها مئذنة مبنية على الطراز الرسولي، وتتوّج قمتها قبة متوسطة الحجم، ما يمنحها شكلاً معمارياً فريداً ومميزاً بالأشكال الهندسية البديعة التي تزخرفها.

ويتضمن المسجد أيضاً ثماني قبب صغيرة وقبة كبيرة في الوسط جرى تصميمها جميعها بشكل معماري منحها هيئة مميزة نتيجة التناغم مع المئذنتين.

ويتميز المسجد بالنقوش والزخارف والخطوط الإسلامية التي تزين جدرانه الداخلية وقبابه ومحرابه، ويتضمن منحوتات حجرية ومشربيات خشبية هي نقوش تكشف تطوّر العمارة الإسلامية في ظل حكم الدولة الرسولية. وتبلغ مساحة بيت الصلاة 50 ذراعاً طولاً و25 ذراعاً عرضاً، وتتسع لنحو 200 مصل. وتضم باحة المسجد قبور السلطان الأشرف وأولاده، وهي ثمانية أضرحة للملك الأشرف إسماعيل، وابن الملك الأشرف الأول أحمد الناصر، والابن الثاني للملك الأشرف محمد المفضل، وحفيد الملك الأشرف عبد الله المنصور بن الناصر أحمد، وحفيد الملك الأشرف شمس الدين بن أحمد الناصر، وحفيد الملك الأشرف هزبر الدين بن أحمد الناصر، وحفيد الملك الأشرف عمر المجاهد بن محمد المفضل، والملك الظاهر أو المؤيد، آخر ملوك الدولة الرسولية. وللمسجد ثلاثة أبواب رئيسية هي باب شرقي وباب جنوبي وباب غربي، وثمانية أبواب في قاعة الصلاة، وثمانية أبواب في الفصول الداخلية، وثمانية أبواب في الفصول الخارجية، و12 باباً في قسم الحمامات. وللمقبرة خمسة أبواب. وفي المداخل ثلاثة أبواب، وبابان للمنارتين، إضافة إلى ثلاث خزنات جدارية.

وعلى حجر الأساس الأول كتبت عبارة «بدأت العمارة في هذه المدرسة السعيدة في ثاني ربيع آخر سنة 800»، وعلى حجر الأساس الثاني عبارة «أمر بعمارة هذه المدرسة المباركة مولانا وملكنا السلطان بن السلطان السيد الأجل الملك الأشرف ممهد الدنيا والدين إسماعيل ابن العباس بن علي بن داوود بن يوسف خلد ملكه ونصره». ونتيجة للمكانة التاريخية التي يتميز بها مسجد الأشرفية، وُضعت صورته على العملة اليمنية من فئة 100 ريال، باعتباره من أبرز المعالم التاريخية الإسلامية. وتعرّض مسجد ومدرسة الأشرفية لمخاطر هددت بانهياره بسبب استخدام الإمام أحمد يحيى حميد الدين الذي حكم اليمن بين عامي 1948 و1962، نهاية المسجد مدبغةً للجلود، وأيضاً بسبب الملوحة الموجودة في المواد التي استخدمت في بنائه، ما أثر سلبا على الأساسات، واستدعى ترميمه مرات، من بينها خلال الفترة بين عامي 2005 و2015 على يد خبراء إيطاليين. وحصل الترميم وفقاً لمعايير منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (يونيسكو).

وخلال الحرب التي شهدتها اليمن منذ عام 2015، أصيبت المنارة الشرقية للمسجد بقذيفة أطلقها الحوثيون، ما تسبب في سقوط جزء من شرفة المنارة، كما تعرض المسجد للعديد من طلقات القناصة التي حطمت بعض النوافذ والقمريات.

وباعتباره من أهم الآثار الإسلامية في اليمن، يحرص كثيرون على زيارة المسجد الذي يقع في المدينة القديمة ويضم عدداً من المساجد، مثل مسجد المظفر وقبة الحسينية والمدرسة المعتبية ومسجد وضريح الشيخ عبد الهادي السودي. يقول عبد القادر الصبري لـ«العربي الجديد»: «مسجد ومدرسة الأشرفية مفخرة الدولة الرسولية في تعز التي حكمت اليمن وصولاً إلى مكة، وذاعت شهرتها نتيجة تطور العلوم الدينية والدنيوية فيها، وتولى علماء دين اشتهروا بالعدل والحق حكمها، فكانوا فعلياً رجال دين ودولة».

ويتميز المسجد بالنقوش والزخارف التي تكشف تطور اليمن خلال تلك الفترة. ويعدّ من أبرز معالم اليمن، وزارته شخصيات عالمية مهمة عدة، من بينها الكاتب الألماني الحائز جائزة نوبل في الآداب غونتر غراس الذي أبدى دهشته بما شاهده من نقوش وزخارف داخل المسجد».

ووصف زوار مهمون المسجد بأنه «لوحة فنية مكتملة خصوصاً قاعة الصلاة، والكتابة الموجودة في العقود والقباب تحكي فلسفة حوار الأديان عن طريق الزخرفة التي كانت الهواية المفضلة لملوك الدولة الرسولية». وبحسب متخصصين في الآثار، بُني المسجد والمدرسة بإمكانات مضاعفة سمحت بصمودهما مئات السنين في وجه الإهمال والعبث، بحسب من أرّخوا لمعالم الحقبة الرسولية، في وقت انهارت عشرات المدارس المماثلة.

وأخيراً

أولئك البدون في رواية كويتية

معن البياري

عندما يقول الروائي الكويتي عبد الله الحسيني (24 عاماً)، في محاورة برنامج «ضفاف» في تلفزيون «العربي 2» معه، إن السؤال الأول للرواية في بلده منذ عقدين تقريباً هو المتعلق بالهوية، لأن هناك أزمة في تعريف هذه الهوية، وأن هذا موضوع حسّاس، وسؤال ملح، لأنه عن علاقتنا بأنفسنا، عندما يقول هذا، لنا أن نقلق ونغتبط معاً: نقلق لأن أزمةً كهذه في مجتمع متمدن، يتوفر على مستوى ملحوظ من اليسر (والرفاه ربما)، تؤشّر إلى أن ثمة تقدّماً في العمران والإدارة والتنمية يتوازى مع الرجوع القهقرى إلى زوايا مناطقية، وإلى التباسٍ هوياتي، وإلى المذهبي أو الطائفي، من دون قدرة في المجتمع ونخبه على بناء معادلة تُخرجه من مسألة «الأزمة». أما الغبطة فلأن المدوّنة الروائية في الكويت تكترث بالسؤال الاجتماعي المطروح، وتلتقط تعبيراته، وتحاول أن تبني مقترحاتها الجماليّة والسرديّة في تصوير التمثيلات التي تعكس حضوراً لتلك المسمّاة أزمة بشأن الهوية.

حاور البرنامج التلفزيوني الرائق عبد الله الحسيني بمناسبة نيل روايته الثانية «باقي الوشم» (منشورات تكوين، الكويت، 2022)، الثلاثاء الماضي، جائزة غسّان كنفاني للرواية العربية في دورتها الثالثة، والتي تنظّمها وزارة الثقافة الفلسطينية، وترأس لجنة التحكيم الروائي والناقد المغربي، أحمد المديني الذي وصف العمل بأنه «قطعةٌ من جمال وأحشاء مجتمع وإنسانية جريحة». وعلى ما قد يكون في هذا القول من إسراف في الثناء على روايةٍ تستحقّ الثناء، فإن الإشارة فيه إلى إنسانيةٍ جريحةٍ في الذي سرَده الحسيني نابهة، أظنّه الجرحُ الذي يسكُن في الأسرة الفقيرة، المقيمة في هامش المجتمع (الكويتي)، هو الثيمة المركزية في النص. ولّما ابتعد المتحدّثون عن الرواية، ومنهم عضو لجنة التحكيم، رياض كامل الذي قال عن سببٍ جيّدٍ متماسكٍ فيها، عن التأشير المباشر إلى صفة عائلة «باقي الوشم» إنها من «البدون» (عديمي الجنسية)، فإنه ليس مطلوباً منهم هذا. أما كلام الكاتب نفسِه عن الرواية (بالمطلق) إنها مقاومة «القهر والعجز والفشل والاستلاب، ومقاومة الهامش والرواية الرسمية»، فإن الإيحاء هنا يعيّن هذا. ليست رواية عبد الله الحسيني من نصوص السرد الذي ينهضُ أساساً على الحكاية، وإنما تتلملم فيها حكاياتٌ صغرى لينبني منها معمارٌ معنيٌّ بتصوير فضاءٍ اجتماعيٍّ ومكانيّ ضيق في زمن التواصل بـ«الفايبر»، لكنه منشدٌّ إلى ماضٍ غير ظاهر. والسارد في هذا كله عليم، يحكي ويحكي، فمن منظوره (واسمُه عبد الله!) عن والده وأمّه وإخوانه وجيرانه، والأهم عن جدّته، ويختار أن يكون اسمُها حمضة السحاب. نتعرّف إلى هموم صغرى وكبرى، يومية وأخرى قارّة، لهذه الأسرة، في علاقتها بمحيطها العام، وبالدوائر الرسمية، من دون إفراط يغلّب حسّاً مأساوياً، أو فجائعية مفتعلة، فالترميز المشفّر في سطور قليلة (الرواية كلها 75 صفحة!)، وبالتكثيف الظاهر، هو ما ينطق بمقولة الرواية عن «إنسانيةٍ جريحة» (على ما قال المديني)، وعن مقاومة الهامش (على ما قال عبد الله الحسيني). البردُ الذي تغالبه الجدّة ذات الاسم المتلئ إيحاءً (وأبعاداً؟) مرفوقاً بانتظارها المديد الربيع، يوحيان بالمنطوق العام لروايةٍ مقلقة، وهما مركزيّان في مسار السرد الذي نقع فيه على مكابدة الأسرة في تدبير شؤونها، وهي التي تصادف صعوباتٍ في العمل، وفي الحصول على الأوراق الرسمية، شهادات الدراسة والميلاد والوفاة، وفي استدعاء الماضي التائه الذي يخصّ الأسرة. تتوفّى الجدّة في مختتم الرواية. ونقرأ الحفيد السارد يقول: «اكتفى أبي ببلاغ الوفاة وإذن الدفن. لم يتمكّن من استخراج شهادة وفاة لها، كان عليه أن يجدّد الإثباتات لأجل ذلك. ظلّ يبكي. كما قال محمّد. يمسح دموعه بغترته، وكلّما كلمه أحد بكى، فتولّى عنه محمّد بقية الإجراءات». يرافق القارئ حمضة السحاب منذ السطور الأولى التي تُنبئنا عن بيت الأسرة الذي بقي على حاله منذ بنته الحكومة في أواخر السبعينيات، و«طلاؤه الأصفر قد تقشّر». ... من مدخلٍ كهذا، نذهب في مسار من حكي يضجّ بمحكياتٍ وتفاصيل، على بساطة عالية، غير أنها تقول ما تقول عن قضية لم تلق الحل الاجتماعي والسياسي بعد في الكويت، ثم ننتهي إلى وفاة الجدّة «وقد تركت كل شيء على حالِه ومضت» (لنسأل نحن قرّاء الرواية إذن: متى يتغيّر حال البدون إذن؟). لم يتركنا السارد عبد الله (هل هو الكاتب عبد الله الحسيني؟)، على حالنا، ودّعنا بالجملة التي أقفل بها كل حكيه الممتدّ «ربما كان الربيع في الغد أو بعد الغد».

> ليست رواية عبد الله الحسيني من نصوص السرد الذي ينهضُ أساساً على الحكاية، وإنما تتلملم فيها حكاياتٌ صغرى

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**